درويش بقوله : « ولعل التزامي هنا لم يعد مبدأ او وجهة نظر او طريقة ، وانما صار نبضا في الدم »(٣٠). كما شهدت تطورا في تعبير الشاعر الفني ، حيث خرج في معظم قصائد الديوان عن عمود الشعر الكلاسيكي . يقول درويش : « وهكذا ، أرى اني خطوت خطوة نحو المزج بين الاشياء مما استدعى صيغة أكثر مرونة تتسع لحركة المزج، أسفرت عن انزال ضربة ، غير مقصودة لذاتها ، ببناء القصيدة الكلاسيكي . وقد حدث ذلك بما يشبه التلقائية ، اذ لا خيار لك وسط هذه الحركات والرموز في ان « تقرر » شكلا ما فالعملية هنا هي التي اخذت اطارها وشكلها »(٣١).

ثم كانت المرحلة الثانية من مراحل مسيرة محمود درويش الشعرية، حيث عانى الشاعر هزيمة حرب حزيران ، فتعمدت تجربته الشعرية بالنار وبالدماء ، فجاء ديوانه « آخر الليل » ١٩٦٧ ، الذي كتب قصائده بعد الهزيمة ، اكثر اعماله الشعرية نضجا حتى هذه الفترة ، وأرفعها من الناحية الفنية . ويعبر محمود درويش عن تجربته الشعرية في هذه المرحلة بقوله : « وأنا شخصيا ، وانا قابع في السجن تعطلت اعصابي . وبعد خروجي لم اجرؤ على القيام بمحاولة الكتابة ، لان التشنج والرؤية الغارقة في الدم والحروق لم تتح لي بلورة المدخل الذي سأنفذ منه الى مثل هذا الموضوع المهلك ... بعد شهور وجدت نفسي اكتب بهدوء ظاهري هذه القصائد التي يحتويها ديوان « آخر الليل » وقد سهّل علي العملية ، الى حد ما ، ادراكي انه لم يتبق لي شيء الا العقيدة والكلمة . فلماذا تسقطان ؟ وهما وسيلتاي للصداقة مع الحياة والتعويض الباقي . لقد استطعت في هذه القصائد ، واقول ذلك بنبرة فخر ، ان انقذ انسانيتي من الموت ، في تلك الفترة العنيفة التي هددت انسانية الانسان بأفدح الاخطار . وعندما انفجر الحلم ، وجدت اني ما زلت متشبثا بانبل تراث : انسانيتي »(٣٢). من هنا استطاع الشاعر ان يقف بتحد امام الموت ، رافضا ان يكون جزءا من الماضي الميت ، ومنطلقا برؤيا جديدة للبحث عن شعر جديد . لذلك كان الموت الذي أحاط بالشاعر سبيلا الى ولادة جديدة اكتسبها في هذا الديوان ؛ يقول :

وليكن
لا بد لي أن ارفض الموت ،
وان كانت أساطيري تموت
انني أبحث في الانقاض عن ضوء وعن شعر جديد
آه .. هل أدركت قبل اليوم
ان الحرف في القاموس يا حبي بليد(٣٣).

هكذا انتصر الشاعر على الموت بالعقيدة ، دون ان تتدخل عقيدته بشكل ظاهر ، اذ لم تعد القصائد نظما لشعارات سياسية ، يقول محمود درويش : « وفي الحوار القاسي او الصراع بين الموت والحياة انتصرت على الموت دون ان اجعل ايديولوجيتي تتدخل ظاهريا »(٣٤) من هنا كان التطور في مفهوم الشاعر للالتزام ، فأصبح الانتماء الحزبي تجربة تغني رؤيا الشاعر ، فكفت القصيدة عن كونها خطبة سياسية ، وخرجت صور الطبيعة في « آخر الليل » عن محدوديتها ، وتعددت دلالاتها فاكتسب بعضها دلالات رمزية ؛ كقوله مثلا :

كان الخريف يمر في لحمي جنازة برتقال
قمرا نحاسيا تفتته الحجارة والرمال
وتساقط الاطفال في قلبي على مهج الرجال
كل الوجوم نصيب عيني .. كل شيء لا يقال ..
ومن الدم المسفوك اذرعة تناديني تعال !(٣٥)